الطريق

الطريق مخوف؛ فهو مظلم، وأنا أخاف من الطريق المظلم ...

نعم ألا تعرف أنَّني أخشى قيادة سيارتي في الطريق المظلم، ولولا كشافات الضوء العالية التي أشعلها طوال الطريق ما سرت في طريق مظلم أبدًا.

ولا يضاهي خوفي من الطريق المظلم إلا رهبتي من الطريق المزدوج الضيق، في كلِّ مرة تسوقني ظروفي للسير في طريق مزدوج أتخيَّل أنَّ سيارة مسرعة ستأتي أمامي لتصدمني ولا أستطيع أن أتفاداها، شيء فظيع، فظيع.

وأفظع منه رعبي من الطريق الدائري الضيق الملتف حول جبل، شعرت في المرات القليلة التي قطعته فيها أنني أسير على حبل ممتد بين نافذتين في الطابق العاشر وعما قليل سأسقط ويدق عنقي ...

ربما تقول: هذه مجرد خيالات وأوهام، ربما تكون أنت ذا قلب جريء لا أملك مثله، لكنك بلا شك لو عرفت مقدار الهلع الذي

كاد يوقف قلبي وأنا أسير ذلك اليوم في طريق الجبل الغربي الضيق المظلم المزدوج – لرثيت لحالي، وسارعت بقلبك الجريء هذا لنجدتي.

وعلى أية حال فأنا أؤكد لك أنني لن أسير فيه ثانيةً أبدًا .. لن أسير فيه أبدًا.

نعم أؤكد لك لأنَّني فارقت حبيبتي فلن أُضْطَرَّ للسير فيه مرة أخرى.

نعم فارقتني سميرة .. تلك المرأة الطيبة الحنون التي كانت زوجتي وكانت سببا في صعودي الجبل.

كانت سميرة فتاة هادئة الطباع، غضيضة الطرف، مَلِيَّةً بسر الأنوثة الأعظم، عرفتها منذ خمس عشرة سنة طفلةً تلهو في باحة البيت الذي انتقلنا إليه مع أبي في هذه المدينة، بعد أن طويت ثمانية عشر عاما في قريتنا. كنت كلما غدوت أو عدت من الجامعة ورأيتها ألاطفها بما يضحكها، وكانت ضحكاتها مغلفة بورق من الحياء الشفيف، يبعث في نفسي السرور والسعادة التي تحولت مع الأيام إلى حبٍّ كامل الأركان، وإنَّ أعظم ما كان يأسرني فيها روحها.

عشر سنوات وهي تكبر أمام عيني وتستحيل من طفلة بريئة إلى فتاة خريدة، خالط سناها شغاف قلبي، عاشت في نفسي هذه السنوات، آبى عليها ما آبى على أختي الصغيرة.

ولم يتحقق عندي أنني صرت لا أستطيع الاستغناء عنها إلا ذلك اليوم الشتوي الممطر الذي عدت فيه من عملي وجلست أتغدى مع أمي وإخوتي فإذا بها تقول:

– أما دريتم .. سميرة جاءها عريس، سيزورهم اليوم.

أحسست كأنَّ لي ثروة عظيمة شقيت في جمعها دهرا وسيأتي غريب يأخذها ويمضي، قلت في انفعال:

– ما هذا؟! أنا غير موافق.

– وما شأنك أنت يا بني؟ أنت لست وليَّها.

ولم يكن اتخاذ قراري بحاجة إلى تفكير .. تركت الطعام وانطلقت لا ألوي على شيء وإخوتي ينادونني، توجهت إلى بابهم ودققت الجرس، فتح لي أبوها وكان رجلا محترما يقدِّرُني، فقلت له مباشرة:

– أريد أن أتزوج سميرة.

فوجئ الرجل بطلبي المباغت، لكنَّ ظِلَّ ابتسامةٍ حاط وجهَه وهو يقول:

– ولماذا لم تخبرني من قبل؟!
– كنت أنتظر الوقت المناسب.
– ولكننا اليوم ننتظر خطيبا.
– يمكن أن نعتذر له.
– أنت تضعني في موقف محرج.
– الإحراج أهون من القتل.
– ماذا تعني؟
– إذا زوجت سميرة لغيري فأنت تقتلني.
وتزوجتها.

عاشت معي خمسة أعوام من السعادة والهناء، حتى أصيبت بذلك الداء العضال، وفي تلك الليلة باغتتها نوبة حادة، كان لابدَّ من الصعود إلى المستشفى الكبير في الجبل، لا مفرَّ، لا أستطيع أنْ أراها في هذه الحالة ولا أفعل شيئا، خوفي عليها غمر خوفي من الطريق، حملتها ووضعتها في السيارة وانطلقت بها، صرخاتها وقود عزمي، وتأوُّهاتها شموع تنير الطريق وتحرق القلب، ودموعها خطوط فاصلة بين الصاعد والهابط على خطٍّ واحد، حتى وصلنا، وهناك احتجزوها في الطوارئ، ثم ما لبثوا أنْ أدخلوها غرفة العمليات، أيُّ جراحة يمكن أن تستأصل هذا الورم

الخبيث، لا أدري؟ كل ما أعرفه أنني أريد أنْ أراها كما كانت .. أنْ أرى بسمتَها .. أشعرَ بنبض السكينة في نظراتها، وبوهج الحياة في أنفاسها.

لا يمكن أن تتخيل كيف مرَّتْ عليَّ الساعات الأربع، كيف كانت الهواجس تتناوبني واحدة تلو الأخرى.

ماتت سميرة ومات كلُّ أحبابي، ولكنني مطمئنٌّ؛ لأنني لن أسير في ذاك الطريق المخوف بعد اليوم.

***

تمت